تأثير الإسلام واللغة العربية في اللغة السواحيلية

د. علي الطاهر عريبي
جامعة الجبل الغربي

سأتناول في هذا البحث تأثير الإسلام واللغة العربية في اللغة السواحيلية حيث عرف العرب المسلمون القارة الأفريقية وتفاعلوا معها لعدة قرون قبل وصول الأوروبيون إليها أما اللغة العربية فهي لغة التخاطب والتفاهم وبها تمت المعارف العلمية ودونت المشاعر تم كتبت اللغة السواحيلية بالحرف العربي حتى مجئ المستعمر الأوروبي إلى القارة حيث حاول استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني .

المسلمون العرب واللغات الأفريقية:

عرف العرب القارة الأفريقية وتفاعلوا معها لعدة قرون قبل أن يصل الأوروبيون حيث كانت للعرب رحلتين رحلة الشتاء والصيف وقد تناول ذلك القرآن الكريم حيث كان يبحر العرب من الجزيرة العربية إلى ساحل الشرق الأفريقي حتى قبل ظهور الإسلام ويظلون بها لقرابة ثلاثة أشهر في انتظار تغير اتجاه الرياح وازدادت هذه الصلات قوة بعد قيام الدولة الإسلامية إلى أن انتهى الأمر بنشأة مجتمع عربي إفريقي هناك بسبب التزاوج و التمازج الثقافي بين العرب والسكان المحليين وكانت سلطنة عمان تدار من زنجبار . (1)

أهمية اللغة العربية :

وسيلة تواصل الإنسان بأخيه الإنسان ومن خلالها كان يتم التخاطب والتفاهم ومن خلالها كذلك تتم تنمية المعارف العلمية والقدرات الفنية وتدوين المشاعر والحالات الوجدانية .

وفى شرق أفريقيا كان عدد المسلمين قد تكاثر وتزايد بدرجة كبيرة وتكونت مدن تجارية (**City States**) وسلطنات عربية إسلامية أنشأها العرب المسلمون الأمر الذي جعل اللغة العربية لغة مألوفة في شرق إفريقيا ثم أمتزج العنصر العربي بالعنصر الزنجي الباتنوى مما أدى إلى توليد لغة جديدة هي مزيج من اللغة الباتنوية واللغة العربية عرفت باللغة السواحيلية.(2)

أما اللغة السواحيلية فمنشأها إلى ساحل شرق أفريقيا في نحو القرن السابع الميلادي وهى مزيج من اللغة العربية ولغة البانتو الأفريقية حيث وفدت مجموعات من العرب من شبه الجزيرة العربية ومن الخليج العربي إلى الأجزاء الشرقية من القارة الأفريقية فتزاوجوا من العنصر الأفريقي وتمازجت لغتيهما مما أدى إلى نشأة لغة جديدة هي السواحيلية فاللغة السواحيلية أصولها تعود إلى مجموعة لغات البانتو وتشير بعض المصادر إلى أن المتحدثين باللغة السواحيلية في شرق أفريقيا يصل إلى حوالي خمسين مليون نسمة وحديثا تشير الإحصاءات بأن هذا العدد زاد 75 مليون نسمة فالسواحلية يتحدثها سكان شرق أفريقيا في كل من تنزانيا ، كينيا ، أوغندا ، جزر القمر ، ورواندا ، ويوروندى ، والكنغو الديمقراطية (زائير ، زامبيا ، وأثيوبيا ، وملاوي ، مدغشقر والصومال (3) يذهب على مزر وعى إلى أن هناك العديد من الروابط المشتركة بين الأفارقة والعرب المسلمين وهى اللغة العربية وهى اللغة التي يتحدث بها أكبر عدد من سكان القارة الأفريقية فضلا عن تأثيرها في العديد من اللغات المحلية في أفريقيا وبخاصة اللغة السواحيلية في شرق أفريقيا والهوسا في غربها .

فعلى الصعيد الديني أكد على مزروعى بأن حقيقة الإسلام في أفريقيا قديم قدمه في الجزيرة العربية استنادا إلى هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة لأجل الاحتماء بملكها من جور أهل مكة واضطهادهم للرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه كما بينته الحفريات المنتشرة في شرق إفريقيا المتمثلة في المساجد التي ترجع إلى العقود الأولى للإسلام .

أما على الصعيد الديموجرافى شهدت المنطقة العديد من الهجرات وتحركات السكان بين أفريقيا والجزيرة العربية خلال القرون الماضية لأنه

تبت وجود مستوطنات عربية على الساحل الأفريقي الشرقي قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ويرى على مزروعى وجود بلال الحبشي في مكة قبل البعثة المحمدية دليل على الوجود الأفريقي في مكة والمدينة قبل الإسلام.(5)

كتبت اللغة السواحيلية لأول مرة بالحرف العربي واستمر ذلك حتى قدوم المستعمر الغربي إلى أفريقيا الذي حالما حول كتابتها إلى الحرف اللاتيني بل وعندما جاء المستعمر أصدرت السلطات الألمانية في شرق أفريقيا قرارا بإلغاء كل الوثائق التي كتبت بالحرف العربي .

لقد تكونت لجنة مركزية للطباعة باللغة السواحيلية في دار السلام بعد الحرب العالمية الأولى ثم قننت السواحيلية لغة رسمية " لتنجانيقا ، تنزانيا حاليا ثم قررت لغة رسمية بكينيا إلى جانب اللغة الإنجليزية وفى سنة 1948 أنشأت مكتب لإدارة الأدب الإفريقي لشرق أفريقيا ليقوم بنشر الكتب والمؤلفات باللغة السواحيلية تحت إشراف لجنة مركزية للطباعة الأمر الذي أكسب السواحيلية أهمية واسعة وتقدما في البحوث والنظام الإملائي للغة السواحيلية .

اهتمت دول شرق إفريقيا بتدعيم اللغة السواحيلية بعد مغادرة المستعمر الغربي وذلك باستخدام السواحيلية في الإدارة والتعليم والصحف في مواجهة الثقافة الغربية واتخذت تنزانيا من اللغة السواحيلية لغة رسمية وقومية بعد الاستقلال حيث أنشأت جامعة دار السلام معهدا لأبحاث اللغة السواحيلية في مدارسها وجامعاتها وأصدرت بها عددا من الصحف كما أنشأت جمعية لنشر اللغة السواحيلية تحت اسم (Society For Propagation of Swahili University college) كما أن السواحيلية أصبحت لغة التعامل والإدارة في موزنبيق و أصبحت من اللغات المهمة في جزر القمر وملاوي والكنغو الديمقراطية (زائير) وزامبيا ومدغشقر .(6)

أن التواصل العربي القادم من مصر أو عبر البحـــر الأحمـــر مـــع إفريقيا أدى إلى نشأة الثقافة السواحيلية واللغة السواحيلية التي ظهرت فـــي القرن الثامن الميلادي وتمركزت في منطقة شرق إفريقيا وبعـــض جـــزر المحيط المجاورة ، فاللغة السواحيلية من أهم اللغات المستعملة في الـــشرق الأفريقي من حيث الانتشار وعدد النـــاطقين بهـــا وهـــى اللغـــة الرســـمية لجمهورية تنزانيا الاتحادية واللغة الرسمية لجمهورية كينيا وتستخدم علـــى نطاق واسع في جنوب الصومال وأوغندا وفى رواندا وبوروندي وفى شرق زائير وشمال موزمبيق وجزر القمر ويقدر عدد الناطقين بها حـــوالي 40 مليون نسمة وتدرس في الجامعات ومعاهد اللغات فـــي أفريقيـــا وأوروبـــا وأمريكا وآسيا وتداع برامج دولية بالسواحيلي من عدة منظمات وهى اللغة التي اعتمدتها اليونسكو كلغة في نشراتها يعود ارتباط اللغة السواحيلية باللغة العربية منذ بزوغ فجر الإسلام إذ ما فتئت اللغة العربية تطعم الـــسواحيلية بمفرداتها حتى قال بعض المفكرين بأن السواحيلي ما هو إلا صيغة مبسطة للغة العربية (7) .

وكان لوجود العرب الثقافي والإداري على طول الساحل الـــشرقي للقارة الأفريقية أثره الواضح إذ قدر اللغويين بأن الكلمات الأجنبيـــة التـــي دخلت السواحيلية 20% في لغة التخاطب ، 30% من السواحيلية المكتوبة ، 50% في لغة الشعر السواحيلي القديم وقد كتبت السواحيلي بالحرف العربي إلى أن خضع شرق أفريقيا إلى الاستعمار الذي عمل على استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني(8) .

و استأثرت الثقافة الدينية في تلك الأماكن بأكبر جزء من المفردات العربية إذ اعتمدت مجموعة من الألفاظ لها وظيفتهـــا فـــي أداء الفـــرائض الدينية مثل : ديني (دين) صالا(صلاة) أماني (إيمان) عبودو (عبادة) زاكا (زكاة) صدق (تضحية) صالا (صلاة) توبو (تـــاب) توبـــا (توبة) إلخ ..

أما أوقات الصلاة مثل كلمة الفاجيرى بمعنـــى الفجـــر الظهـــورى والعاصرى أما أيام الأسبوع إجومعا (الجمعة) لومـــا مـــوزى (الـــسبت) لومابيلى (الأحد) لوماتاتو (الاثنين) . إلخ ....

وتوجد مفردات عربية كثيرة التداول في شؤون المنزل والحياة العائلية الأفريقية مثل ساقافو ــ ومصالا (الطهارة) ، وبرزا (شرفة) وغرفة منزل كذلك في وصف علاقات الشخص بالأسرة مثل عامى (ابن العم أو العمة أو الخال أو الخالة) بنتى (بنت) رفيقى (صديق) عادنى (عدو) الحياة الاجتماعية مثل ماهانى (مهر) وأدابو (لباقة) وأمالى (قرابة) الخ ...

وكذلك في المجالات التجارية فقد اعتمدت عدة مصطلحات تجارية مثل سيتا (ستة) وسابا (سبعة) وإيداشرا (إحدى عشر) مثل بيع ثمن (منادى) بيع المزاد العلنى وفايدا (ربح) وفى الإدارة مثل عقيدة (الحكم البلدى) وكلمة ليوالى (زعيم) ودجامبى (شيخ القرية) وأيضا في الصوتيات والمقومات النحوية والأعمال الأدبية (8) .

وعلى الرغم من أن عددا من اللغات الأجنبية ساهمت في نمو السواحيلي وتطويره ، فإن اللغة العربية أثرت تأثيرا أساسيا وتبوأت مكانة خاصة في هذا الصدد ويعترف السواحيلي بأهمية اللغة العربية والدين الإسلامي .

تمتد العلاقة الأفريقية بسكان جزيرة العرب والعراق إلى زمن طويل قبل الإسلام ولكن مجئ الإسلام أدى إلى نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة حتى صار الإسلام الدعامة الأساسية للثقافة العربية ، وأصبحت اللغة العربية لسان العقيدة الإسلامية ، ومستودع الفكر الإسلامي وصاحب انتشار الإسلام نشر أنماط من الثقافة العربية واكتسبت العربية أو العروبة معنى جديدا إذ أصبحت العروبة هي عروبة اللسان والثقافة ، ومصر أول الأقطار الأفريقية التي تأثرت بالعقيدة الإسلامية ، وتأصلت فيها الثقافة العربية فتصدرت الأقاليم الإفريقية في نشر الإسلام والثقافة العربية في أجزاء كبيرة من القارة وكان سودان وادي النيل بعد مصر أول البلاد المطلة على ساحل البحر الأحمر ممثلا للثقافة العربية (9).

أكدت بعض الدراسات الحديثة أن السواحيلية وآدابها شديدة الارتباط باللغة العربية وبالدين الإسلامي ، فيرى بعض الباحثين أن فهم الأدب السواحيلي خاصة الديني منه يتطلب الماما بالمسائل الدينية ، مثل تفسير

القرآن والفلسفة الإسلامية وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على مدى الاتصال الوثيق بين اللغة العربية التي هي لغة الإسلام ومعارفه والتي عن طريقها تلقى الأفارقة قديما هذه المعارف فاللغة السواحيلية ما هو إلا صيغة مبسطة للغة العربية .

إن العناصر القادمة من الجزيرة العربية ومنطقة الخليج إلى الشرق الأفريقي قبلت التنازل عن وعائها اللغوي في سبيل إنتاج لغة تناسب نشاط سكان تلك المناطق ، وسمحت اللغة العربية لنفسها بأن تكون هجينا بين العربية و" البانتو " وتولدت من هذا التلاقح اللغة السواحيلية التي كتبت بحروف عربية ، مما سهل الاتصال والتفاهم بين العنصرين ، إلى جانب تلقى التعاليم الإسلامية . هذا ومن الملفت للانتباه بأن العرب المدنيين في مملكة النوبة بوادي النيل في شمال السودان حملت نفس سمات اللهجتين العربية " والبانتو " التي تولدت منها السواحيلية (10) .

انتشرت اللغة السواحيلية انتشارا واسعا فضمت الصومال وكينيا وملاوي وموزمبيق ورواندا ومدغشقر وجزر القمر وانتشرت أخيرا في جنوب السودان وتتفاوت استخداماتها بين أن تكون لغة أولى كما في زنجبار، والساحل الشرقي لكينيا ، ولغة ثانية لغالبية سكان تنزانيا ، ومستخدمة على نطاق ضيق كما في أوغندا وزائير واستعمالها لدى بعض المجموعات التي تسكن الصومال وموزمبيق (11) .

تدل الدراسات اللغوية المقارنة على أن الصلات بين اللغات الأثيوبية والعربية القديمة " السبأية أو الحميرية " ترجع إلى ما قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بقرون إذ كانت أوجه الشبه بين اللغات السامية الأثيوبية واللغة العربية " القديمة " في مجال التركيب والبناء الصوتي والقاموس توضح أن تلك الصلة كانت قوية وذات جذور تاريخية بعيدة وقد أطلقت كلمة أثيوبيا ثم الحبشة على تلك المناطق الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر وتشمل أثيوبيا والسودان وارتريا الحالية (12) .

انتشر الإسلام في أفريقيا وبدرجة سريعة وتدفق إلى قلب الهضبة الحبشية وتخطى ساحل شرق أفريقيا إلى المناطق الداخلية على كينيا وتنجانيقا (13) .

ظل البحر الأحمر وما يزال ممرا دائما يصل بين جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا كما أن هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة دليل على التبادل الإجتماعى بين العرب والأفارقة الذين سبق وأن اختلطوا معهم تجاريا وسياسيا ، وكانت أكثر المناطق تعاملا مع العرب وكان اتصالهم بالعرب قويا بل توحدت إفريقيا حول عقيدة ولغة واحدة إلا وهو الثقافة العربية الإسلامية (14) .

إن ظهور الإسلام على الساحة الأفريقية في العصر الإسلامي كان كان له هدف سام هو نشر العقيدة الإسلامية وتبعه بسط النفوذ السياسي والمعنوي ونشر اللغة العربية والحضارة العربية وهكذا قامت مع الفتح وبسبه روابط عميقة مع إفريقيا شمالها وغربها وشرقها في المجالات الدينية والثقافية (15) .

ويؤكد التاريخ الإسلامي أن المسلمين الأوائل هاجروا إلى الحبشة هجرتين عبر البحر الأحمر قادهما عثمان بن عفان ولقى المسلمون كل ترحيب من النجاشي الذي رفض تسليمهم وإعادتهم إلى قريش واشتملت هاتان الهجرتان على عدد من النساء ، مما يدل على تأكد المسلمين بموافقة الحبشة على إيوائهم واستضافتهم ولم يكن هذا التأكد إلا نتيجة ، تردد المسلمين أكثر من مرة على هذا الطريق وكان هذا الشعور صحيحا إذ كان المهاجرون في الحبشة يلقون كل ترحاب طيلة ست عشر سنة ، ومن أجل هذا ظلت العلاقات الحبشية تربط كلا من النجاشي والنبي صلى الله عليه وسلم طيلة حياتهما فتبادل الهدايا أكثر من مرة وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحمل كثيرا من الود بل الحب للأحباش (16) .

ونتيجة لتلك العلاقات العميقة ، دخلت الألفاظ والمصطلحات طريقها إلى اللغة العربية من الحبشة على الرغم من أن معظم هذه الألفاظ أصلها ذات جذور سامية يؤكد علماء اللغة بأنها دخلت عن طريق الحبشة ، ومن بين الألفاظ على سبيل المثال ما يعود إلى مسائل دينية كالحواريين ومنافق ومنبر ومحراب وبرهان ، ومنها ما يدل على أسماء الحيوانات كالحريش والزرافة والبغل والهرماس وصيغة أفعول الدالة على الجمع في اللغة العربية دخلت الحبشة (مباشرة عن طريق اليمن مثل أخذوذ وأمعور واحبوش وأركوب (جماعة الركاب) (17) .

18/ حسن ، يوسف فضل ، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأفريقية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1985 ص39 ، أيضا عريبى ، على الطاهر ، مرجـع سـبق ذكره ص228.

19/ محمـــــد ، عبـــــد الله عمـــــر ، مرجـــــع ســـــبق ذكـــــره ص30 ـ31 .